ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان] فخَلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التى يُؤدِّيها ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

أى : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هى أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التى وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفى موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعى ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعى الذى خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة فى الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذُبولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شىء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففى قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ، ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذى يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله فى يد العامل ليصلحه !! شىء عجيب وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا .. (٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرهم إنْ كفروا بها ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عدماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرق فى مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عن الفرقان فى الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَا .. (٤) ﴾ [الفرقان] يعنى : ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿ إِلَّا إِفْكٌ (٤) ﴾ [الفرقان] الإفك : تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قُلْنا : إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهى صِدْق ، وإنْ خالفتْه فهى كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان[1] أناخ لها ناقته حتى ركبت

---

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية عام ١٩ هـ . [الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣] .

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العفَّة والصيانة ، وهُم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل ـ فرضاً ـ على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا :﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ .. (٤) ﴾ [الفرقان] أي : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثْله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟!

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربي ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. (٤) ﴾ [الفرقان] الذي قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبي فكيهة الرومي ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان] أي : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدَّة الحكم ودليله . والظلم يأتي بعد الزور ، لأن القاضي يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتِّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ ﴾

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أُحْدوثة ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿ اكْتَتَبَهَا .. ⑤ ﴾ [الفرقان] يعني : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ ﴾ [الفرقان] أي : باستمرار ليُكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم :

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾

﴿ أَنزَلَهُ .. ⑥ ﴾ [الفرقان] أي : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ⑥ ﴾ [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله في

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل فى أُمة أمية ، والرسول الذى نزل عليه القرآن رجل أمى ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

والحق - تبارك وتعالى - يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث فى بدر حيث وقف النبى ﷺ فى ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها فى المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »[1] .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَن الذى يستطيع أن يحكم مسبقاً فى معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان فى هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذى قال عنه القرآن[2] ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووى « فما ماط » أى فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختُلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره . وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى ، وحكى هذين القولين الطبرى » .

الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] يعني : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته في غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتي رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبي لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتي رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب[1] من كلاب الله »[2]. فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدي من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذي يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد في رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقي ، فهو يعلم صدق النبي ﷺ وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق.

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح الباري (٤/٣٩) .

(٢) وذلك أن عتيبة بن أبي لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبي وقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبراني مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبي عقرب وصححه ، وحسّنه ابن حجر في الفتح (٤/٣٩) .

وخرج الولد فى رحلة التجارة ورغم احتياطهم فى حمايته هجم عليه سبع فى إحدى الليالى واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليس كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد فى الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُبطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزيكم أمام أعيُن الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان فى تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه :﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

فأىُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صِدْق ما يخبر به ؛ لأن الذى يخبره ربه - عز وجل - الذى يعلم السِّرَّ فى السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى :
﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ⑥ ﴾ [الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس فى نفس اليوم الذى انتصر فيه الإيمان على الكفر فى غزوة بدر ، هذا اليوم الذى قال الله تعالى عنه :﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ ..⑤ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذى أنزل القرآن هو سبحانه الذى يعلم السِّر فى السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد - سبحانه وتعالى - فمن أين يأتى الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾ [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه - عز وجل - وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبى ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1]

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به » .

القتل فى المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدَّخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففى انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى فى النزوع العاطفى عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة[1] التى أغرتْ وَحْشياً[2] بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ، ولاكَتْ[3] كبده رضى الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبى ﷺ نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب[4] ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبى سفيان ، شهدت أحداً فى جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت فى خلافة عثمان . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٠٦/٨) .

(٢) هو : وحشى بن حرب الحبشى مولى بنى نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبى ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك فى حروب الردة فى قتل مسيلمة وقد شهد موقعة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك : مضغ . وهو مضغ الشىء الصلب تديره فى فمك . واللَّوْكُ : إدارة الشىء فى الفم . [لسان العرب - مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه أسماء بنت وهب من بنى أسد ، أما أم عمر فهى حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سناً من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة . [تمييز الصحابة ٢٧/٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رَأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشى فى الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ ما لهَـٰذا الرَّسُولِ يأكُلُ الطَّعَام ويَمْشي في الأسْوَاقِ .. ۝٧ ﴾ [الفرقان] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لوْلا أُنزِلَ إلَيْه ملَكٌ فَيكُونَ مَعَهُ نَذيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان] صحيح أن الملَك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لوْلا أُنزِلَ إلَيْه ملَكٌ .. ۝٧ ﴾ [الفرقان] يعنى : يسانده ، وفى هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذن : لن يضيف الملَك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيكُونَ مَعَهُ نَذيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾

تلحظ أنهم يتنزلون فى لَدَدهم وجَدَلهم ، فبعد أنْ طلبوا مَلَكاً يقولون ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ (٨)﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا (٨)﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨)﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه « الصادق الأمين » وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى رداً عليهم :﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والخُلُق يسوى تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف - إذن - يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه فى المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩)﴾

﴿انظُرْ..(٩)﴾ [الفرقان] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ..(٩)﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿فَضَلُّوا

فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] لأنهم يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً فى القول .

﴿ فَضَلُّوا..﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : عن المثل الذى يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه[1]:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان] كما قلنا : تنزَّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل فى الخير الذى ساقه الله تعالى لرسوله ﷺ ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خير عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده فى الغد خير مما أعطاك بالأمس .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل من عند ربه معزياً له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] وقال جبريل : أبشر يا محمد ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال : يا محمد رب العزة يقرئك السلام ، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لى فيها ، الفقر أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . بتصرف واختصار [من أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ١٩٠ ، ١٩١] ، و [تفسير القرطبى ٤٨٦٩/٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) ﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن الإيمان ليس في مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً ، وهم يريدون التمادى فى باطلهم والاستمرار فى لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيهم ؛ لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم فى الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضيةٌ فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿ أَعْتَدْنَا .. (١١) ﴾ [الفرقان] هيّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتَدوْا ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَوْا من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه فى وصفها :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُشخِّص لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثِبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

والتغيُّظ : ألم وجدانى فى النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسعتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿٨﴾ ﴾[الملك] تميَّز يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تميَّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصى ، ألاَ ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على - رضى الله عنه - فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب[1] .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه . فإذا مات فقداه وبكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » .

والحق - تبارك وتعالى - يُظهر لنا هذه الصورة في قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

فالنار تتشوّق لأهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِى فيها من العصاة تقول : ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ومعنى ﴿زَفِيرًا..(١٢)﴾ [الفرقان] النفَس الخارج . وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧)﴾[الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهى فى المكان الضيق .

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا(١) مُّقَرَّنِينَ(٢) دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب :﴿يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾[النبأ] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعنى : يا هلاكى تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حَدّ قول الشاعر :

كَفَى بكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافياً ... وَحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمَانيَا(٣)

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك فى رقائقه (٢٩٩ - زوائد الزهد) وأورده القرطبى فى تفسيره (٤٨٧١/٦) .

(٢) مقرنين : مُكتَّفين . قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قُرنوا مع الشياطين ، أى : قُرن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره (٤٨٧١/٦)] .

(٣) البيت للمتنبى (ديوانه ٢٨١/٤) وذكره شهاب الدين محمود الحلبى فى « صناعة الترسل » (ص ٢٥٢) فى شواهد حُسْن الابتداءات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأَغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبّطون فى هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله فى أمر دعوته ، والتعرُّض لأىّ نبىٍّ فى أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعى ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فى كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة فى ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمّارة بالسوء ، وهى أمّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أى : أنها أخذتْ هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر فى قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإن اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هى ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل فى أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر فى النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه فى نفوس قوم آخرين ملَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لـذلك لا حاجةَ لرسول بعـد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمـة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجـتمع ثانياً لتـدخلتْ السماء بعـد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةٌ تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى ـ إذن ـ أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعـوة الرسول التى جـاءتْ لتعـدل ميزان الـمجتـمع ، وأنْ يقفـوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل الســابقون قد تعرَّضـوا لمثل هذا الاضطهاد ، فـقد تعرَّض رسول الله ﷺ لأضعاف مـا تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضـخامة مهمتـه ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمتـه خاصة فى زمن محـدد ، أمَّا رسـالته ﷺ فقـد جاءت للناس كـافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فـلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبـراء الذين ينتفـعون بالفـساد فى المـجتـمع يظنون أن رســول الله إذا لُوِّح له بالمـال والنعـيم يمكن أن يتنازل عن دعـوته ، ويتـرك لهم الساحـة ؛ لذلك اجتـمع صناديد قريش علـى رسول الله ، يُلوِّحون له بالمـال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعـوة ويصرفوه عنهـا ، هؤلاء الذين سمـاهم أستـاذنا الشيخ مـوسى : دستـة الشر ، وكـانوا اثنا عشـر رجـلاً ، مـنهم : أبو البـخـتـري[(١)] ، وأبو جـهل ، وأبو ســفيـان ، والأسود بن المطلب ، وأمـية بن خلف ، والعـاص بن وائل ، وعتبـة بن ربيعة ، ومُنبِّه بـن الحجاج ، والوليد بن المـغيرة ،

(١) أبو البختـرى : اسمه العاص بن هشـام بن الحارث . قاله ابن إسحـاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[(١)] .

لقد ذهب هؤلاء[(٢)] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوْا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى المُلْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذى مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[(٣)] .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة في واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتي تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبي أمامة قال النبي ﷺ : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذى في سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٥٤) . قال الترمذى : حديث حسن .

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[1]

والنبى مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملْك هو المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أوتيه من الملْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الردَّة) فى حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقى[2]، فلم يكن سليمان يريد الملْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصرْفه عما يريد ردّ عليها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٠) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال (١٠/ ٣١٥) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت) عن عطاء رضى الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الحوارى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٨٩) فى تفسير آية ٣٥ ـ سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مـال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنـا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعى كتـاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكـون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظَّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولى فـإننى سأصـبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خـير الحاكمين[1] .

فلجئوا إلى عم النـبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميـله ، فلما كلَّمه عمـه قال قولتـه المشهـورة : « والله لو وضـعوا الشـمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[2]

﴿ أَذَٰلِكَ (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن مـن العذاب خير ، أم جنة الخلد التـى وُعد المـتـقـون ؟ احكمـوا أنتم فى هذه المسـألة وسنرضى بحكمكم ، إنـها إغـاظة لأهل النار ، حـيث جمع الله عليـهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجـنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأُولـى وحدها لكانت كـافية ، إنمـا هو فى العذاب ويأتـيه أهل الجنة ليُبكِّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكـلَّمنا عن الصراط ، ولمـاذا ضُرب على مَتْـن جهنم ، والجمـيع يمرون عليه ؛ لأن الله ـ تبارك وتعـالى ـ يريد أنْ يجعل لك

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (٢٩٦/١) .

(٢) أورده ابن هشام فى السـيرة النبـوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسـحاق . أن قريشـاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سـناً وشرفـاً ومنزلة فـينا ، وإنا قد اسـتنهـيناك من ابن أخيك فلـم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصـبر على هذا من شـتم آبائنا وتسفـيه أحلامـنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسـول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مـرائى النار التى تمرُّ علـيهـا فوق الصـراط نعمـة أخرى تُذكّـرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخـول الجنة فحسب ، إنما أيضـاً بالنجاة من النار ، فيـقول سبــحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يذكـر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخـرة فسوف نراها رأى العـين ، كما قال سبـحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتـحمد الله على الإسلام الذى أنجـاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ..(١٥)﴾[الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خيـر يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كـما جـاء فى الحديث الشـريف : « المؤمن الـقوى خـير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعـيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خيـر ، وإن زاد الخير فى المـؤمن القوى ، وعـادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة]

والجنة كمـا نستعملهـا فى استعمـالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فـيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بهـا عن غـيـرها ، لذلك أردفـهـا الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ بقـوله : ﴿الْخُلْدِ..(١٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجـه أحمد بن حـنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ومسلـم فى صحيـحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التي تراها في الدنيا مهما بلغت فليست هي جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة في الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أشَدُّ الغَمِّ عنْدى فى سُـرُورٍ   تَيقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التي وعدهم بها هي جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغِّص سرورها ، فلذَّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذي يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] يعني : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله في صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً .. (١٥) ﴾ [الفرقان] أي : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعِبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب في ديننا أن نُسعده الآن في الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باق دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا (١٦) ﴾

فى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥) ﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿ خَالِدِينَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التى يرى فيها السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهمُ ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلها ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء - حتى الأنبياء - ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .. (٤٥) ﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .